حرف التاء المثناة الفوقية

(١١٢)
(تُنْكُرْ نائب الشام)

جُلِبَ إلى مصر وهو صغير فاشتراه الأشرف، ثم صار إلى الناصر، فجعله أمير عشرة قبل أن يعزل نفسه ويفرّ إلى الكَرك، ثم كان في صحبته بالكَرك يترسَّل بينه وبين الأفرم، وكان الأفرم إذ ذاك نائب الشام، ففي بعض الأوقات اتهمه الأفرم بأن معه كتباً إلى أمراء الشام ففتشه وعرض عليه العقوبة فرجع إلى الناصر وشكى إليه ما لاقاه من الإهانة فقال له: إن عدتُ إلى الملك فأنت نائب الشام عوضه. فلما عاد إلى الملك جهّزه لنيابة الشام في ربيع الآخر سنة (٧١٢)، وأرسل معه من يعرفه بما يحتاج إليه. فباشر ذلك وتمكّن وسلك سبيل الحرمة والناموس البالغ، وفتح اللَّه على يديه مَطْلِيّة في سنة (٧١٥) وذلك أنه استأذن السلطان في ذلك، فأذن له، فأظهر أنه يريد التوجه إلى محل آخر، فخرج وخرجت العساكر معه، وهو في دست السلطنة بالعصايب والكوسات، ومعه القضاة. فلما وصل إلى حلب جرّد عسكراً إلى مَطْلِيّة، ثم توجه في أثره فنازلها إلى أن فتحها. ورحل بأسرى وغنائم ومال كثير، فعظم شأنه وهابه الأمراء والنوَّاب، قال الصفدي: سار السيرة الحسنة العادلة بحيث لم يكن له همة في مأكلٍ ولا مشربٍ ولا ملبسٍ ولا منكحٍ، بل في الفكرة في تأمين الرعايا، فأمنت السبل في أيامه، ورخصت الأسعار. ولم يكن أحد في ولايته يتمكن من ظلم أحد ولو كان كافراً. ثم إن الناصر بالغ في تعظيمه، وتقدّم أمره إلى جميع النواب بالبلاد الشامية أن يكاتبوا (تنكر) بجميع ما كانوا يكاتبون به السلطان. وزاد في الترقي حتى كان الناصر لا يفعل شيئاً إلَّا بعد مشاورته. ولم يكتب هو إلى السلطان في شيء فيرده فيه إلَّا نادراً. ولم يتفق في طول ولايته أنه ولَّى أميراً ولا نائباً ولا قاضياً ولا وزيراً ولا كاتباً إلى غير ذلك من جليل الوظائف وحقيرها برشوة ولا طلب مكافأة، بل ربما كان يدفع إليه المال الجزيل لأجل ذلك، فيردّه ويمقت صاحبه. وكان يتردد إلى القاهرة بإذن السلطان فيبالغ في إكرامه واحترامه، حتى قال النَشْوُ مرة: إن الذي خصّ تنكر في سنة (٧٣٣) خاصة مبلغ ألف ألف وخمسين ألف خارجاً عن الخيل والسروج. وكان قد

سمع الحديث من عِيسَى المطعم، وأبي بَكْر بن أحمد بن عبد الدايم، وابن الشّحنة وغيرهم. ولما حجَّ قرأ عليه بعض المحدثين بالمدينة الشريفة ثلاثيات البخاري. ومن مبالغة السلطان في تعظيمه أنه روى عنه الأمير سيف الدين أنه قال له مرة: لي مدة طويلة أطلب من الناس شيئاً لا يفهمونه مني، وهو أني لا أقضي لأحد حاجة إلَّا على لسان (تنكر) ودعا له بطول العمر. قال: فنقلت ذلك إلى (تنكر)، فقال: بل أموت أنا في حياة السلطان. قال فبلغت السلطان ذلك فقال: لا قُلْ له أنت إذا عشت بعدي نفعتني في أولادي وأهلي، وأنت إذا متّ قبلي إيش أعمل أنا مع أولادك أكثر مما عملت معهم في حياتك. ولتنكر مآثر في دمشق مساجد ومدارس ورباطات. وحجّ في سنة (٧٢١)، ويقال: إنه قدم القاهرة بعد حجّه، فأمر السلطان الأمراء بها دونه، وكانت جملة ما قدم إليه ثمانين ألف دينار. وكان الناس في ولايته آمنين على أنفسهم وأموالهم وحريمهم وأولادهم. وكان يتوجّه في كل سنة إلى الصيد، ويصيد أياماً. وكان مثابراً على الحقّ ونصرِ الشرع إلَّا أنه كان كثير التخيُّل سريع الغضب شديد الحدّة، ولا يقدر أحد على مراجعته مهابةً له. وإذا بطش بطش بطشة الجبارين، وإذا غضب على أحد لا يزال ذلك المغضوب عليه في انعكاس وخمول إلى أن يموت غالباً. وكان يقول أي لذة لحاكم إذا كانت رعاياه يدعون عليه. وما كان يخلو ليله من قيام ودعاء. وكان يعظم أهل العلم، وإذا كان عنده أحد منهم لم يسند ظهره بل يقبل إليه بوجهه ويؤنسه بالقول والفعل. وكان سليم الباطن ليس عنده دهاء ولا مكر، ولا يصبر على الأذى. لا يداري أحداً من الأمراء. وقدم إلى مصر في سنة (٧٣٨) فخرج السلطان لملاقاته، فلما رآه ترجّل له فترجَّل جميع من معه من الأمراء، فألقى (تنكر) نفسه من فوق الفرس إلى الأرض وأسرع وهو يقبل الأرض حتى انكب على قدمي السلطان فقبلهما، فأمسك رأسه بيده وأمره بالركوب. وقدم في سنة (٧٣٩) فكانت قيمة تقادمه للسلطان والأمراء مائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار. وبالغ السلطان في إكرامه حتى أخرج له نساءه فقبلن يده. وله محاسن منها أنه نظر في أوقاف المدارس والجوامع والمساجد والخوانق والزوايا والربط فمنع أن يصرف لأحد جامكية حتى يلم شعثها، فعمرت كلها في زمانه أحسن عمارة. وأمر بكسح الأوساخ التي في مقاسم المياه التي تتخلل الدور، وفتح منافذها، وكانت انسدت، فكان الوباء يحصل بدمشق كثيراً بسبب العفونات، فلما صلح ذلك زال ما كان يعتادهم كل سنة من كثرة الأمراض، فكثر الدعاء له. وأجرى العين إلى بيت المقدس بعد أن كان الماء بها قليلاً، وأقاموا في عملها سنة، وأكثر من فكاك الأسرى، وأعظم ربح التجار الذين يجلبونهم. وجمع الكلاب فألقاها في الخندق، واستراح الناس من أذاها. ولما انتهى

حظه وبلغ الغاية في هذه الدنيا أشهر في الناس أنه عزم على التوجه إلى بلاد التتار حتى بلغ ذلك السلطان وتغير عليه وتنكَّر لِتنكر، وجهز العساكر لإمساكه مع جماعة من الأمراء، وليس عنده خبر، فلما بلغه الخبر بوصول الجند والأمراء لإمساكه بُهِتَ لذلك وقال: ما العمل؟ قالوا: تستسلم، فاستسلم وجهّز سيفه إلى السلطان. وذلك في ذي الحجّة سنة (٧٤٠) وتأسف أهل دمشق عليه. ثم بعد القبض عليه أحيط بموجوده، ووجد له ما يجاوز الوصف فمن الذهب العين ثلاثمائة وثلاثون ألف دينار، ومن الدراهم ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم، وأما الجواهر والحوائص والأقمشة والخيول ونحو ذلك فشيء كثير جدّاً. ثم لما دخل القاهرة أمر السلطان جميع المماليك والأمراء أن يقعدوا له بالطرقات من حد باب القلعة، وأن لا يقوم له أحد. وفي بعض الأوقات قال له السلطان: أنظر من يكون وصيّك، فقال له: خدمتك ونصحتك فلم تترك لي صديقاً. وأمر بتجهيزه إلى الإسكندرية، فلم يزل في الاعتقال دون شهر، ثم (مات) في أوائل سنة ٧٤١ إحدى وأربعين وسبعمائة. قال الذهبي في أواخر كتابه (سير النبلاء): كان ذا سطوةٍ وهيبةٍ وزعامةٍ وإقدامٍ على الدماء. وله نفس سبعية، وفيه عُتُوٌّ وحرصٌ مع ديانة في الجملة. وكان فيه حِدّة وقلّة رأفة. وكان لا يفكر في عاقبة ولا رأي له ولا دهاء إلى آخر كلامه. وتعقبه الحافظ صلاح الدين الغلائي فقال: لقد بالغ المصنف وتجاوز الحدّ في ترجمة تنكر، وأين مثله، وأعرض عن محاسنه الطافحة من العدل وقمع الظلمة وكفّ الأذى عن الناس ومحبة إيصال الحق إلى مستحقه وتولية الوظائف أهلها. وحسبك أن المصنف يعني الذهبي كان فقيراً فلما خلت دار الحديث الأشرفية وتربة أم الصالح ولّى (تنكر) المزي والذهبي بغير سؤال منهما، ولا بِبَذْلٍ لأنه أعلم بحالهما واستحقاقهما. ثم ولّى الذهبي دار الحديث الظاهرية ثم النفيسية ثم دار الحديث التنكرية. ثم قال الغلائي: ذنب تنكر أنه كان يحطّ كثيراً على ابن تيمية وفي هذه الإشارة كفاية. انتهى. وهو يشير بهذا إلى أن الذهبي تحيز إلى الحنابلة.

(١١٣)

(تَيمُورلَنْك بن طَرْغَاي السلطان الأعظم الطاغية الكُبْرى)

الأعرج، وهو اللنك في لغتهم. كان ابتداء ملكه أنها لما انقرضت دولة بني جنكزخان وتلاشت في جميع النواحي ظهر هذا بِتُركستان وسَمرْقَنْد، وتغلّب على ملكهم محمود بعد أن كان أتابكه، وتزوّج أمه فاستبد عليه. وكان في عصره أمير بحاري يُعرف بحَسَن من أكابر المُغْل، وآخر بِخُوَارِزْم يعرف بالحاج حَسَن الصوفي،